التجديد في التفسير
بين المشروعية والانحراف

تأليف
فضيلة الشيخ : حذيفة بن حسين القحطاني
غفر الله لهُ ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبيانًا لكل شيء، وهدىً ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي أرسله الله معلماً ومبيناً، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فإن تفسير القرآن الكريم يمثل الشريان الحيوي الذي يربط الأمة بوحي ربها، وينظم مسيرتها في الحياة. وقد شهدت مناهج التفسير على امتداد العصور تطوراً وتنوعاً، يجسد سعي الأمة الدؤوب لفهم كلام الله تعالى، واستنباط هداياته التي لا تنفد، استجابة لتحديات كل عصر، ومواكبة لمستجدات كل زمان.

وفي عصرنا الحاضر، حيث تواجه الأمة الإسلامية تحديات فكرية وحضارية جساماً، وتتسارع وتيرة التغير في جميع المجالات، برزت دعوات متعددة إلى "تجديد تفسير القرآن الكريم". فأصبح "التجديد" شعاراً ترفعه تيارات فكرية متباينة، ومنهجيات تفسيرية مختلفة، بل متناقضة أحياناً. وهذا الواقع يفرض علينا وقفة متأنية، وتمحيصاً دقيقاً، لفهم معنى هذا التجديد، وحدوده، وضوابطه.

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب: "التجديد في التفسير: بين المشروعية والانحراف"، الذي نحاول من خلاله الإجابة عن أسئلة محورية تطرح نفسها بإلحاح:

- ما هو التجديد التفسيري المقصود شرعاً؟ وهل هو اجتهاد في تطبيق مناهج قائمة، أم ابتكار لمناهج جديدة بالكلية؟
- ما هي مجالات التجديد المشروعة؟ هل تقتصر على الجوانب اللغوية والأدبية فقط، أم تمتد إلى استنباط أحكام جديدة، أو قراءات اجتماعية وسياسية؟
- أين تكمن المشروعية؟ وما هي الضوابط التي تحفظ للتجديد مساره الصحيح، وتمنعه من التحول إلى تأويل باطل، أو تفسير بالهوى؟
- وأين يبدأ الانحراف؟ وما هي المؤشرات التي تدل على خروج محاولات التجديد عن الإطار الشرعي؟

يسعى هذا الكتاب إلى تقويم هذه الدعوات، وتمييز غثها من سمينها، من خلال منهجية علمية رصينة تقوم على:

١. الاستقراء: تتبع مظاهر ودعاوى التجديد في الكتابات التفسيرية المعاصرة.
٢. التأصيل: ربط هذه الدعوات بأصول العلم الشرعي وقواعد التفسير المعتبرة.
٣. التحليل والنقد: بيين مواطن القوة والضعف في هذه المناهج، وفق معايير موضوعية.
٤. التمييز: فرز ما هو مقبول شرعاً وعقلاً، مما هو مرفوض أو محتاج إلى تعديل.

سيجول الكتاب في ميادين شتى، من التفسير الموضوعي، والتفسير العلمي، والقراءات الحداثية، والتفسير المقاصدي، وغيرها من المناهج التي تدعي التجديد، محاولاً وضع يد القارئ على نقاط الالتقاء والافتراق بينها وبين الأصول الراسخة.

إن هذا الجهد لا يدعي الكمال، ولا يزعم أنه قضى في الموضوع قضاء مبرماً، ولكنه محاولة لإضاءة الطريق، وتقديم خارطة تساعد طالب العلم والقارئ المتخصص على التمييز بين "تجديد" يخدم القرآن ويفتح كنوزه، و"انحراف" يبتعد به عن مقاصده ويلويه عن مراده.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، ونافعاً لعباده، وأن يوفقنا جميعاً لفهم كتابه والعمل به، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

كتبه

فضيلة الشيخ : حذيفة بن حسين القحطاني

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين

أهمية الموضوع:

يبرز أهمية هذا الموضوع من كونه يتعلق بقضية مصيرية تشغل حيزاً بالغ الخطورة في واقع الأمة الإسلامية، ألا وهي قضية تجديد فهمها للقرآن الكريم، الذي هو دستور حياتها، ومنطلق نهضتها. وتكمن أهمية التجديد المنضبط في معالجة إشكاليتين رئيستين:

١. مواكبة تحديات العصر المستجدة:

تواجه الأمة طوفاناً من القضايا العلمية المعقدة (كقضايا الهندسة الوراثية، والذكاء الاصطناعي، وعلوم الفضاء)، و الاجتماعية المتشعبة (كقضايا المرأة، والأسرة، والعدالة، والحكم)، و الفكرية الملحة (كصراع الحضارات، والعلمانية، والوجودية). ولا يمكن تقديم إجابات ناجعة عن هذه التحديات بعقلية اجترارية تتعامل مع النص القرآني وكأنه حبيس حقبة زمنية واحدة، بل لا بد من فهم متجدد يستنطق النص لاستخراج هداياته الخالدة، وتوجيهاته الكلية، ورؤيته الحضارية التي تقدم حلولاً للمعضلات المعاصرة، مما يجعل القرآن حياً في ضمير الأمة، وفاعلاً في حركة تاريخها.

٢. الحفاظ على ثوابت النص ووسطية الأمة:

في خضم موجة الدعوات "التجديدية" التي تتدفق من داخلها وخارجها، تتعرض ثوابت النص القرآني وهويته للتشويه والتفكيك. فثمة من يسعى لتأويل القرآن وفق الأهواء الفلسفية الغربية، أو تحميله ما لا يحتمل من النظريات العلمية القابلة للدحض، مما يفضي إلى انحراف في الفهم، وقطع الصلة بتراث الأمة التفسيري. لذلك، فإن التأصيل لضوابط التجديد المشروع يصبح حاجة ملحة لـ حماية ية النص وتمامه، وضمان عدم الانزياح عن مقاصده الشرعية ومراميه الأساسية. فهو تجديد يجمع بين الأصالة بالتمسك بثوابت الوحي ولغة القرآن، و المعاصرة بفهم واقع العصر ومشكلاته.

وبالتالي، فإن دراسة موضوع "التجديد بين المشروعية والانحراف" ليست ترفاً فكرياً، بل هي ضرورة حضارية لبناء منهجية تفسيرية متوازنة، تخرج الأمة من مأزق الجمود والتقليد من ناحية، ومأزق التفلت والتبعية الفكرية من ناحية أخرى، لتستعيد دورها الريادي في إثراء الحضارة الإنسانية بمنظور قرآني أصيل ومعاصر.

تعريفات أساسية: التجديد، التفسير، الانحراف، التفسير الموضوعي، التفسير العصري.

تعريفات أساسية

١. التجديد (لغة واصطلاحاً):

- لغة: مصدر جَدَّدَ، يُجَدِّدُ، بمعنى أعاد الشيء إلى حالته الأولى بعد أنْ بلِيَ، أو استحدث ما يقاوم به البلى. وهو يشمل معنى الاستمرار والاستحداث معاً.
- اصطلاحاً (في مجال التفسير): ليس اختراعاً جديداً للدين، بل هو عملية إحياء وتطوير لمناهج فهم القرآن تشمل:
  - تنقية التراث التفسيري من الشوائب والروايات الإسرائيلية غير المعتمدة.
  - إعادة اكتشاف المناهج التفسيرية الأصيلة وتطبيقها بوعي.
  - استنباط معانٍ جديدة وهدايات معاصرة من النص القرآني، باستخدام أدوات العصر، لمواجهة مستجدات الحياة وقضاياها.
  - صياغة عطاءات القرآن في قوالب عصرية تيسر فهمه وتطبيقه.

- الشرط الجوهري: أن يتم هذا كله في إطار الثوابت الشرعية واللغة العربية وأصول التفسير المعروفة.

٢. التفسير:

- لغة: الكشف والبيان والإيضاح.
- اصطلاحاً: علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات ذلك. (بتصرف)

- بمعنى آخر: هو جهد علمي لفهم كلام الله تعالى، واستخراج أحكامه ومعانيه، بدراسة ألفاظه، وتراكيبه، وأسباب نزوله، ومقاصده.

٣. الانحراف (في التفسير):

- لغة: الميل والعدول عن الطريق المستقيم.
- اصطلاحاً: كل خروج عن القواعد والأصول المقررة لعلم التفسير، يؤدي إلى فهم النص القرآني فهماً مخالفاً لمراد الله تعالى، أو مناقضاً لدلالة اللغة، أو متناقضاً مع النصوص القطعية. ويشمل:

- التفسير بالهوى: تحميل النص معنىً ليناسب رأياً مسبقاً أو أيديولوجية معينة.
- التفسير الباطني: ادعاء معانٍ خفية لا تدل عليها اللغة ولا السياق.
- تجاهل السياق والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول.
- تفويض المعنى دون اعتبار للضوابط اللغوية والشرعية.

٤. التفسير الموضوعي:

- لغة: نعت منسوب إلى "الموضوع"، أي الأمر المطروح للبحث.

- اصطلاحاً: منهج تفسيري يبحث في القرآن الكريم حول موضوع معين، ويجمع الآيات المتعلقة به من مختلف السور، ثم يدرسها دراسة متكاملة ليستخلص الرؤية القرآنية الشاملة حول ذلك الموضوع.

  - أنواعه: موضوع في سورة واحدة، موضوع في عدة سور، موضوع في القرآن كله (كالتوحيد، القصص، التشريع).

  - هدفه: تجاوز النظر إلى الآية منفردة، إلى النظر إليها ضمن نسق كلي، مما يكشف عن تكامل واتساق القرآن.

٥. التفسير العصري (أو التفسير العلمي أو التفسير بالرأي المحمود):

- لغة: نعت منسوب إلى "العصر"، أي الزمن الحاضر بعلومه وقضاياه.

- اصطلاحاً: اتجاه تفسيري يسعى إلى ربط معاني القرآن الكريم بحقائق العلم الحديث، وقضايا العصر الفكرية والاجتماعية. وهو نوع من التجديد المشروط الذي:

  - يقدم القرآن كهداية للبشرية في كل عصر.

  - يوظف المعارف الحديثة (كعلم النفس، الاجتماع، الفيزياء) كوسيلة لفهم الآيات بشكل أعمق، أو للاستشهاد على إعجاز القرآن، لا أن يجعلها أصلاً يُحكم على القرآن بها.

  - الخطر فيه: أن يتحول إلى "تأويل" قسري للنص ليوافق نظريات علمية قد تثبت خطؤها لاحقاً، فيكون ذلك مطعناً في القرآن.

الفصل الأول: مفهوم التجديد في علوم الشريعة والتفسير

تمهيد:

يشكل مفهوم "التجديد" إحدى الركائز الأساسية في فهم مسيرة الأمة الإسلامية ونهضتها، فهو مفهوم أصيل يستند إلى الحديث النبوي الشريف: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها". وهذا الفصل يهدف إلى تأصيل هذا المفهوم، وبيان حدوده وضوابطه، خاصة في مجال التفسير وعلوم الشريعة.

المبحث الأول: تعريف التجديد

أولاً: التجديد لغة:

مصدر الفعل "جَدَّدَ"، ويعني أعاد الشيء إلى ما كان عليه بعد أن بلي أو درس، ومنه "تجديد الثوب" أي جعله جديداً. ويشمل معنى الاستمرار والتجدد، فالجديد نقيض القديم البالي.

ثانياً: التجديد اصطلاحاً:

هو عملية إحياء وإعادة للأصول الإسلامية إلى صورتها النقية الأولى، مع استنباط ما يلائم مستجدات العصر من خلال الاجتهاد المنضبط. وهو ليس اختراعاً جديداً للدين، بل هو:

١. تنقية: تصفية التراث الإسلامي من الشوائب والآراء الضعيفة.

٢. إحياء: إبراز الأصول الصحيحة والأحكام الثابتة.

٣. تطوير: صياغة جديدة للفهم تستوعب المستجدات المعاصرة.

٤. تجديد الوسائل: استخدام الأدوات الحديثة في خدمة العلوم الشرعية.

المبحث الثاني: الفرق بين التجديد والتغيير والتبديل

أولاً: التجديد والتغيير:

- التجديد: تغيير يرتبط بالأصل ويعيد إنتاجه بشكل متجدد، مع المحافظة على الجوهر والهوية.
- التغيير: مفهوم أعم، فقد يكون إيجابياً أو سلبياً، وقد يحافظ على الجوهر أو يتعداه.

ثانياً: التجديد والتبديل:

- التجديد: إحياء للأصل وإبراز له في صورة جديدة.
- التبديل: إلغاء للأصل واستبداله بغيره، وهو مذموم شرعاً كما في قوله تعالى: "أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ".

الفرق الجوهري:

- التجديد: محافظة على الأصول مع تجديد في الفروع والوسائل والصيغ.
- التبديل: تغيير في الأصول والثوابت، وهو انحراف.

المبحث الثالث: مجالات التجديد في التفسير

١. تجديد المنهج: تطوير طرق الاستنباط وأدوات التحليل.
٢. تجديد العرض: تقديم التفسير بلغة العصر وأدواته.
٣. تجديد الفهم: اكتشاف معاني جديدة تواكب مستجدات العصر.

٤. التنقية: تنقية التفاسير من الإسرائيليات والروايات الضعيفة.

خاتمة الفصل:

التجديد الشرعي ليس خروجاً عن الأصول، بل هو عودة بها إلى الحياة، وهو عملية موازنة بين الثبات على الأصول والمرونة في الفروع. والفرق بينه وبين التبديل هو الفرق بين البناء والهدم، بين الإحياء والإماتة.

هذا الفصل يؤسس للمفاهيم الأساسية التي ستبنى عليها فصول الكتاب القادمة، حيث سينتقل إلى تطبيقات هذه المفاهيم في مناهج التفسير المختلفة.

المبحث الثاني: أسس مشروعية التجديد في التفسير

لا يعد التجديد في التفسير خروجاً عن الإطار الشرعي، بل هو أمر له أسس شرعية متينة تستند إلى نصوص الوحي وقواعد الشريعة، يمكن إجمال أهمها في ما يلي:

أولاً: النصوص الشرعية الحاثة على التدبر والاجتهاد:

١. النصوص الآمرة بالتدبر: لقد ذم القرآن الكريم أولئك الذين يعرضون عن تدبره وفهم معانيه، قال تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (محمد: ٢٤). والأمر بالتدبر هو أمر باستمرار البحث في معاني القرآن واستخراج كنوزه، وهو ما يحقق التجديد الحقيقي في الفهم.

٢. النصوص الدالة على خلود القرآن وعالميته: وصف الله تعالى كتابه بأنه "هُدًى لِّلنَّاسِ" (البقرة: ١٨٥)، و"تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ" (النحل: ٨٩). وهذا يقتضي أن تكون هدايته

صالحة لكل زمان ومكان، وهو ما يستلزم بالضرورة تجديد فهمه لمواكبة كل عصر ومسايرة كل تطور.

٣. الحديث النبوي في تجديد الدين: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا" (أبو داود). وهذا الحديث أصل في مشروعية التجديد، وهو يشمل تجديد الفهم للقرآن الكريم كأصل من أصول الدين. والمجدد هو من يصحح المفاهيم، ويحيي ما اندرس من معالم العلم، ويقدم فهماً صحيحاً يتناسب مع حاجات العصر دون المساس بالأصول.

ثانياً: القواعد الأصولية المبررة للاجتهاد:

١. عِلِّية النصوص وقصدية التشريع: الشريعة بنيت على حكم ومقاصد. وتجديد الفهم هو عملية كشف عن هذه الحكم والمقاصد (كالتيسير، ورفع الحرج، وتحقيق العدل) وتطبيقها في واقع متغير. فالتجديد هو اجتهاد في تحقيق مقاصد النص في ظل الظروف المستجدة.

٢. سعة اللغة العربية ومرونتها: اللغة العربية التي نزل بها القرآن ذات ثروة ية هائلة وطاقات تعبيرية واسعة. وهذا يفسح المجال لاكتشاف دلالات جديدة لألفاظ القرآن بما يتناسب مع تطور اللغة ذاتها ومع ظهور معطيات جديدة، طالما أن هذا الاكتشاف محكوم بضوابط اللغة وأساليبها.

٣. انتهاء الاجتهاد: الاجتهاد لم يُغلق بابه، بل هو مستمر إلى قيام الساعة في المسائل التي لم يرد فيها نص قاطع. والتفسير مجال خصب للاجتهاد، مما يعني شرعية تعدد الأفهام وتجددها حسب اختلاف العصور والأحوال.

٤. التفريق بين الثابت والمتغير: من أسس التجديد المشروع التفريق بين:

- الثوابت: وهي النصوص القطعية الثبوت والدلالة، والأحكام الشرعية المعللة بعلل ثابتة (كأركان الإسلام والعقائد). وهذه لا مساغ للتجديد فيها.

- المتغيرات: وهي كل ما يتعلق بفهم النصوص الظنية الدلالة، وتطبيق الأحكام في واقع متغير، والمساحات الاجتهادية الواسعة. وهذا هو مجال التجديد الحقيقي.

تقوم مشروعية التجديد في التفسير على أصلين عظيمين: النص الشرعي الذي حث على التدبر وضمن خلود الرسالة، والمنهج الاجتهادي الذي أقر تعدد الأفهام ومراعاة المقاصد. وهذا يجعل التجديد ليس مجرد خيار، بل هو ضرورة شرعية لتحقيق وظيفة القرآن كهداية للعالمين.

المبحث الثالث: أنواع التجديد في التفسير

لا ينحصر التجديد في التفسير في نمط واحد، بل يتشعب إلى عدة أنواع، تختلف في منهجيتها وهدفها ومجال تطبيقها. ويمكن تصنيف هذه الأنواع على النحو التالي:

١. التجديد المنهجي:

وهو أعمق أنواع التجديد، حيث لا يقتصر على إضافة تفسيرات جديدة، بل يطال طريقة التفسير ذاتها وأدواته.

- مظاهره:

- تطوير مناهج نقدية لتنقية التراث التفسيري من الإسرائيليات والروايات الضعيفة.

- وضع ضوابط دقيقة للتفسير العلمي للقرآن والاستفادة من الاكتشافات الحديثة دون إسراف أو تفريط.

- تطوير التفسير الموضوعي كمنهج مستقل، بجمع الآيات المتفرقة حول موضوع واحد ودراستها دراسة متكاملة.

- الاهتمام بـ التفسير المقاصدي الذي يربط الأحكام والتوجيهات بمقاصد الشريعة العليا (كحفظ الدين، والعقل، والنفس، والمال، والعرض).

٢. التجديد اللغوي والبلاغي:

يركز هذا النوع على تجديد فهم الآيات من خلال اللغة العربية وعلومها.

- مظاهره:

- الاستفادة من الدراسات اللغوية واللسانية الحديثة لفهم دلالات الألفاظ وتركيباتها الجديدة.

- إعادة اكتشاف الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن وعرضه بأسلوب معاصر.

- دراسة الأساليب القرآنية (كالقصة، والحوار، والأمر، والنهي) من منظور تحليلي حديث.

٣. التجديد الفكري والحضاري:

يهدف إلى استخراج الرؤية القرآنية الشاملة لقضايا العصر الكبرى.

- مظاهره:

- تقديم التفسير الاجتماعي للقرآن، بتحليل العلاقات الاجتماعية والأسرية والسياسية في ضوء التوجيهات القرآنية.

- معالجة القضايا الفكرية المعاصرة (كقضايا الحرية، والعدالة، والمرأة، والبيئة) من خلال النص القرآني.

- استنباط أسس الحضارة الإسلامية وخصائصها من القرآن.

٤. التجديد في العرض والتقديم:

وهو تجديد في الشكل والوسيلة لا في المضمون، ويهدف إلى جعل التفسير أكثر تأثيرًا وانتشارًا.

- مظاهره:

- استخدام الوسائط المتعددة (المرئية، والمسموعة، والرقمية) في تقديم التفسير.

- صياغة التفسير بلغة عصرية سهلة، بعيدًا عن التعقيدات المصطلحية.

- تبسيط التفسير لعامة الناس مع الحفاظ على الدقة العلمية.

- إنتاج تفاسير مرئية (إنفوجرافيك) وتطبيقات إلكترونية تفاعلية.

٥. التجديد التطبيقي (الواقعي):

يركز على كيفية تطبيق الهدايات القرآنية في واقع الحياة.

- مظاهره:

- بيان كيفية تطبيق القيم القرآنية (كالتزكي، والصبر، والعدل) في الحياة المعاصرة.

- استنباط حلول للمشكلات المعاصرة (كالفقر، والفساد، والأمراض الاجتماعية) من خلال القرآن.

- ربط التفسير بقضايا التنمية والإعمار في الأرض.

تمثل هذه الأنواع مجتمعة خريطة الطريق للتجديد الشامل والمتوازن في التفسير. فالتجديد المنهجي يضمن الصحة العلمية، والتجديد اللغوي يضمن الدقة الفهمية، والتجديد الفكري يضمن المواكبة الحضارية، وتجديد العرض يضمن الوصول والتأثير. وأي تجديد يقتصر على نوع واحد ويغفل الآخرين يكون تجديدًا ناقصًا.

المبحث الرابع: مجالات التجديد المشروعة في التفسير

يتركز التجديد المشروع في التفسير ضمن ثلاثة مجالات رئيسية، تشكل معاً إطاراً متكاملاً لتحديث فهم القرآن وعرضه وتطبيقه، دون المساس بثوابت النص أو قدسيته. وهذه المجالات هي:

١. تجديد وسائل الفهم وأدواته:

ويهدف إلى تطوير الآليات والمناهج المستخدمة في استخراج المعاني من النص القرآني، مع الالتزام بالأصول العلمية الراسخة.

- أمثلة تطبيقية:

- الاستفادة من المناهج النقدية الحديثة: استخدام قواعد النقد التاريخي وأساليب تحليل النصوص بشكل نقدي لتنقية التراث التفسيري من الروايات الموضوعة والإسرائيليات.

- توظيف العلوم الإنسانية والتجريبية: الاستعانة بعلوم مثل اللسانيات الحديثة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع لفهم الآيات التي تتحدث عن النفس البشرية والعلاقات الاجتماعية بشكل أعمق، مع التأكيد على أن هذه العلوم وسائل إيضاح وليست مصادر تشريع.

- تطوير التفسير الموضوعي والمقاصدي: جعل هذين المنهجين منهجين رئيسيين في التفسير، لجمع شتات الموضوع الواحد وفهم النص ضمن رؤية كلية تحقق مقاصد الشريعة.

- الاستفادة من تقنيات البحث الحديثة: استخدام قواعد البيانات الضخمة وبرامج الحاسوب في البحث عن المفردات والموضوعات عبر القرآن كله، مما يوسع دائرة الاستقراء ويضبطه.

٢. تجديد طريقة العرض والأداء:

ويهدف إلى تحديث صياغة التفسير وتقديمه للجمهور المعاصر بأساليب تلائم عقليته ووسائل عصره، لجسر الهوة بين لغة التراث وإدراك الإنسان الحديث.

- أمثلة تطبيقية:

- تبسيط اللغة وتحريرها من التعقيد المصطلحي: عرض الأفكار والمعاني العميقة بلغة عربية سليمة ولكنها معاصرة ومباشرة، يسهل فهمها على غير المتخصصين.

- تنويع أشكال العرض: عدم الاقتصار على الكتاب الورقي، بل استخدام الوسائط المتعددة مثل التلفزيون والإنترنت (مقاطع فيديو، بودكاست، إنفوجرافيك) وتطبيقات الهواتف الذكية لتقديم التفسير.

- الاعتناء بالجانب التربوي والوجداني: تقديم التفسير بأسلوب قصصي مؤثر، أو من خلال حلقات تربوية، تربط بين المعنى وتزكية النفس وتغيير السلوك.

- التفسير الحواري: عرض التفسير في شكل حوارات ونقاشات جماعية تناقش إشكالات العصر، مما يجعله حياً وفاعلاً في الواقع.

٣. تجديد الربط بالواقع وتطبيقاته:

وهو المجال التطبيقي للتجديد، حيث يتم نقل التفسير من دائرة الفكرة المجردة إلى دائرة الممارسة العملية، بإبراز قدرة الهدايات القرآنية على معالجة مشكلات العصر.

- أمثلة تطبيقية:

- معالجة القضايا المعاصرة: استنباط التوجيهات القرآنية الخاصة بقضايا مثل النظام الاقتصادي العادل، وأخلاقيات البيئة، والطب والأخلاقيات الطبية، والحقوق الرقمية، وقضايا الأسرة الحديثة.

- الاستنباط التشريعي للمستجدات: الاجتهاد من خلال القواعد والأصول القرآنية لإصدار أحكام فقهية في المسائل الحديثة التي لم تكن موجودة من قبل.

- بناء النماذج الحضارية: استخلاص الأسس القرآنية لبناء نظم سياسية واجتماعية واقتصادية بديلة عن النماذج الوضعية، تقدم رؤية إسلامية أصيلة.

- توجيه العلوم والتقنيات: تقديم إطار أخلاقي ومعرفي مستمد من الرؤية القرآنية للكون والحياة، لتوجيه مسار البحث العلمي والتقني لخدمة وتحقيق عمارة الأرض لا تدميرها.

تمثل هذه المجالات الثلاثة حلقة متكاملة: فـ تجديد الوسائل يضمن دقة الفهم، و تجديد العرض يضمن وصول الفهم، و تجديد الربط بالواقع يضمن فاعلية الفهم. وبهذا يصبح التجديد عملية بناء شاملة، تثبت أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، ليس فقط في نصوصه، بل في قدرته على إلهام فهم متجدد يلامس هموم الإنسان في كل عصر.

المبحث الخامس: المناطق المحظورة من التجديد في التفسير

في مقابل مجالات التجديد المشروعة الواسعة، ثمة مناطق في التفسير تعد بمثابة ثوابت مقدسة وحدود إلهية لا مساغ للاجتهاد أو التجديد فيها. وأي محاولة للعبور عليها لا تعد تجديداً بل تبديلاً وانحرافاً. وأهم هذه المناطق:

١. ثوابت العقيدة والأصول الاعتقادية:

وهي الأمور القطعية التي تثبت بالنصوص القطعية، وتشكل الإطار العقدي للإسلام.

- أمثلة:

- ألوهية الله وربوبيته وأسمائه وصفاته: كما وردت في القرآن والسنة الصحيحة بلا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. فلا يجوز تجديد فهم صفة من صفات الله لتناسب فلسفة عصرية أو فكرة بشرية.

- الغيبيات: كحقيقة الملائكة، والجن، والجنة، والنار، والعرش، واللوح المحفوظ. فهي توقيفية، يُقبل ما جاء فيها بالنص ولا يتجاوز.

- الرسالات والأنبياء: الإيمان بجميع الرسل والأنبياء الذين ذكرهم القرآن دون تفرقة أو إنكار لأحدهم.

- أمور الآخرة: كحقيقة البعث، والحساب، والميزان، والصراط. فهي من الأمور المغيبة التي لا مجال للعقل المجرد فيها.

٢. القطعيات الفقهية والأحكام الشرعية المحكمة:

وهي الأحكام التي ثبتت بدليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة، لا يحتمل إلا معنى واحداً.

- أمثلة:

- أركان الإسلام الخمسة: كوجوب الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج. فلا يجوز "تجديد" الفهم ليصل إلى القول بإسقاط فرضيتها أو استبدالها.

- الأحكام ذات النص القاطع: كتحريم الزنا، والخمر، والربا، والقتل بغير حق. فأي محاولة لتأويل هذه النصوص للتهوين من شأن هذه المحرمات تعد انحرافاً.

- حدود الله تعالى: كحد الزنا والسرقة والقذف. فهي مقدرة بنص شرعي ولا اجتهاد مع وجود النص.

- الميراث: الأنصبة المقدرة بنص قرآني صريح (كالفروض) لا تجوز مخالفتها تحت أي ذريعة.

٣. الدلالات الأساسية والواضحة للألفاظ القرآنية (النصوص القطعية الدلالة):

وهي تلك المعاني المباشرة والواضحة التي تفيدها الألفاظ في سياقها اللغوي والسياقي، والتي لا تحتمل أي معنى آخر.

- أمثلة :

  - تفسير لفظ "الصلاة" في القرآن بأنها غير الشعائر المعروفة، أو تفسير "الزكاة" بأنها تزكية النفس فقط دون إخراج المال.
  - تحريف معنى "الربا" ليطبق فقط على بعض صوره التاريخية دون غيرها.
  - تأويل لفظ "الخلق" في قصة آدم عليه السلام تأويلاً مجازياً يلغي حقيقة خلق بشر.

الفرق الجوهري بين التجديد المشروع والتبديل المنحرف يكمن في احترام هذه المناطق المحظورة. فالتجديد الحقيقي هو الذي يحرك الساكن في مجالات الاجتهاد الواسعة، ولا يزعزع الثابت في أصول الدين القطعية. وهو أشبه بعملية "التنقيح والبناء" حول مركز ثابت، وليس عملية "هدم وإعادة بناء" لذلك المركز نفسه.

الفصل الثاني: الدوافع التاريخية والاجتماعية للتجديد

تمهيد:

لم تبرز دعوات التجديد في التفسير في فراغ، بل كانت استجابة حتمية لتحديات تاريخية واجتماعية فرضت نفسها على الواقع الإسلامي. وهذا الفصل يسلط الضوء على أهم هذه الدوافع التي شكلت حافزاً قوياً لإعادة النظر في مناهج التفسير وطرق فهم القرآن.

المبحث الأول: الدوافع التاريخية

١. الجمود والتبعية التراثية:

- مع مرور العصور، سيطرت نزعة التقليد والجمود على الكثير من الدراسات القرآنية، حيث اقتصر جهد العديد من المفسرين على شرح الشروح واختصار المختصرات.
- أدى هذا الجمود إلى وجود فجوة بين النص القرآني الحي والمتغيرات المستمرة في حياة الأمة، مما دفع المفكرين إلى الدعوة لكسر طوق التقليد والعودة إلى القرآن مباشرة.

٢. المواجهة مع الحضارة الغربية:

- مع الحملة الفرنسية على مصر ومن بعدها فترة الاستعمار، اصطدم العالم الإسلامي بحضارة غربية قوية تقنياً وعسكرياً، تختلف في مفاهيمها وقيمها عن المرجعية الإسلامية.
- أثار هذا الاصطدام أسئلة حارقة حول قدرة التراث التقليدي على مواجهة هذا التحدي، فبرزت الحاجة إلى "تجديد" الفهم الديني لاستنباط إجابات قرآنية عن أسئلة العصر، وإثبات صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

٣. انهيار الخلافة العثمانية:

o مثل سقوط الخلافة العثمانية صدمة كبرى للأمة، وأدى إلى ظهور فراغ سياسي وهوية مكسورة.

o في هذا المناخ، انقسمت التيارات الفكرية: فمنهم من رأى أن الحل هو العودة إلى الأصول وتجديد فهمها بعيداً عن الشوائب التاريخية (كالسلفية الإصلاحية)، ومنهم من دعا إلى تبني النماذج الغربية، مما خلق حواراً ساخناً حول كيفية تفسير النصوص المتعلقة بالحكم والشورى.

المبحث الثاني: الدوافع الاجتماعية والثقافية

١. تحديات العولمة والثقافة العالمية:

o فرضت العولمة تياراً ثقافياً واحداً قوياً، يروج لقيم ومفاهيم قد تتعارض مع الثوابت الإسلامية.

o أصبحت الحاجة ملحة إلى تفسير يعيد تقديم القيم الإسلامية (كالعدالة، والكرامة، والأخوة) بطريقة عصرية مقنعة، لمواجهة قيم الاستهلاكية والفردية المفرطة.

٢. تطور العلوم والإعلام:

o أدى التقدم العلمي المذهل إلى ظهور نظريات كبرى (كنظرية التطور) واكتشافات (كعلم الجينات)، مما أثار تساؤلات جديدة حول آيات الخلق والإعجاز العلمي في القرآن، ودفع إلى محاولات لتجديد التفسير ليواجه هذه النظريات أو يوفق بينها وبين النص.

o كما خلق تنوع وسائل الإعلام وانتشارها حاجة ملحة لتقديم التفسير بأساليب جذابة وسريعة تتناسب مع عقلية ووقت الإنسان المعاصر.

٣. تغير البنى الاجتماعية:

- أدى تحول المجتمعات من البنية القبلية والزراعية إلى الحضرية والصناعية إلى ظهور قضايا اجتماعية جديدة (كدور المرأة، وعلاقات العمل، والأقليات، وشيخوخة المجتمع).

- فشل الخطاب التقليدي في معالجة هذه القضايا بشكل مقنع للكثيرين، مما دفع إلى الحاجة لتجديد الخطاب التفسيري ليتعامل مع هذه المستجدات من منظور قرآني.

٤. صعود التيارات المتطرفة:

- أدى بروز الجماعات المتطرفة التي تتبنى تفسيرات حرفية ومتشددة للنصوص إلى إلحاق ضرر كبير بصورة الإسلام.

- كرد فعل، برزت الحاجة إلى تجديد التفسير لتقديم فهم وسطي معتدل للقرآن، يؤكد على قيم الرحمة والتسامح والعدل، ويكافح القراءات المتطرفة التي تخدم أجندات سياسية.

خاتمة الفصل:

تبين أن الدوافع وراء التجديد في التفسير لم تكن دوافع أكاديمية بحتة، بل كانت انعكاساً لأزمات الأمة الحضارية والوجودية. فالتجديد هو محاولة من العقل المسلم لاستعادة المبادرة، وإيجاد صيغة للتفاعل الحي مع القرآن تمكنه من الاستمرار كمرجعية فاعلة في حياة الأمة، وتقدم إسهامه في الحضارة الإنسانية.

الفصل الثالث: المنهج التجديدي الرائد (منهج الموازنة)

تمهيد:

في خضم التيارات المتصارعة بين جمود التقليد وتهور التغريب، برزت الحاجة إلى منهج وسطي يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويوازن بين ثوابت النص ومتطلبات العصر. وهذا الفصل يتناول "منهج الموازنة" بوصفه المنهج التجديدي الرائد الذي يحقق التجديد المنضبط.

المبحث الأول: مفهوم منهج الموازنة وأسسه

- التعريف: هو المنهج الذي يقوم على الموازنة بين عدة ثنائيات أساسية في عملية التفسير، بهدف الوصول إلى فهم متكامل ومتوازن للنص القرآني. وهو ليس منهجاً مستقلاً بقدر ما هو رؤية ضابطة لأي منهج تفسيري.
- أسسه الفكرية:

١. الوسطية: الاستمساك بوسطية الإسلام ورفض الغلو والتفريط.

٢. التكامل: الإيمان بأن الحق لا يوجد كاملاً في اتجاه واحد، بل قد تتكامل المناهج.

٣. الاجتهاد المنضبط: الاجتهاد ضمن أصول الشرع وضوابط اللغة.

المبحث الثاني: الثنائيات التي يرتكز عليها منهج الموازنة

١. الموازنة بين النص والواقع:

- المقصود: عدم تفسير النص بمعزل عن الواقع، وعدم إخضاع النص لتبرير الواقع.
- التطبيق: فهم النص في ضوء مقاصده العامة، ثم تطبيق هذه المقاصد على الواقع المعاصر. فالنص هو الموجه والواقع هو مجال التطبيق.

٢. الموازنة بين دلالة النص وقرائن الحال:

- المقصود: الجمع بين فهم الدلالة اللغوية المباشرة للنص (المنطوق) وقرائن السياق والمقصد (المفهوم).

- التطبيق: تفسير الآية ليس فقط بمعاني مفرداتها، ولكن بدراسة سياقها، وسبب نزولها، ومقصدها العام في التشريع.

٣. الموازنة بين قواعد اللغة وأصول الشريعة:

- المقصود: عدم الاكتفاء بالتحليل اللغوي المجرد للنص بعيداً عن أصول الشريعة الكلية، وعدم تجاهل دلالات اللغة تحت دعوى مراعاة المقاصد.

- التطبيق: فهم النص ضمن نظام اللغة العربية وأساليبها، مع ربط هذا الفهم باليقينيات الشرعية والمقاصد الكلية للشريعة.

٤. الموازنة بين فهم السلف واجتهاد الخلف:

- المقصود: احترام فهم السلف الصالح للنص والاستفادة منه باعتباره الأقرب إلى لغة الوحي وملابساته، مع إعطاء مساحة لاجتهاد المعاصرين لفهم النص في ضوء معطيات عصرهم.

- التطبيق: الأخذ بتفسير السلف كأصل ومرجع، وعدم الاكتفاء به كنهائي، بل مواصلته والبناء عليه.

٥. الموازنة بين الثابت والمتغير:

- المقصود: التمييز الواضح بين الأمور العقائدية والتعبدية الثابتة، والأمور الدنيوية الاجتماعية القابلة للتغير.

- التطبيق: الحفاظ على الثوابت دون مساس، واستنباط المتغيرات منها بما يتناسب مع تطور الحياة.

المبحث الثالث: ضوابط تطبيق منهج الموازنة

١. الإلمام الشامل: ضرورة التسلح بعلوم الآلة (لغة، أصول، عقيدة،.)

٢. الموضوعية والإنصاف: تجنب التحيز لرأي مسبق أو اتجاه معين.

٣. فقه الأولويات: تقديم الأهم على المهم في فهم النص وتطبيقه.

٤. الاستقصاء والاستقراء: محاولة جمع كل ما قيل في المسألة ودراستها دراسة متكاملة.

خاتمة الفصل:

يمثل منهج الموازنة نموذجاً رائداً للتجديد المنشود، فهو يجنب الأمة مزلقين خطيرين: مزلق الجمود على التراث، ومزلق القطيعة معه. وهو المنهج الذي يحقق الاستمرارية الحضارية، ويجعل القرآن حياً في ضمير الأمة، ومرشداً فعالاً لحركتها في التاريخ.

المبحث الرابع: الجمع بين المأثور والرأي: الآلية التطبيقية لمنهج الموازنة

يُعد الجمع بين المأثور والرأي التطبيقَ الأبرز والأكثر عطاءً لمنهج الموازنة، فهو يجسّد الموازنة العملية بين النقل والعقل، وبين الأصالة والاجتهاد. ولا يعني هذا الجمع مجرد ذكر القولين جنباً إلى جنب، بل هو عملية تكاملية منهجية.

أولاً: المأثور (الأصل والمنطلق):

- مصادره: يشمل كل ما ورد في تفسير القرآن من:
  - القرآن نفسه: تفسير القرآن بالقرآن.
  - السنة النبوية: ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من تفسير للقرآن.
  - أقوال الصحابة: فهمهم للنص وهم الأقرب إلى لغة الوحي وملابسات نزوله.
  - أقوال التابعين: خاصة إذا أجمعوا عليه.
- الدور: يمثل الأصلَ والمنطلقَ والضابطَ. فهو الأساس الذي يُبنى عليه، والحد الذي لا يتجاوز.

ثانياً: الرأي (الاستنباط والتجديد):

- مصادره: هو الجهد الاجتهادي العقلي لفهم النص.
- الدور: هو التكميل والاستنباط والتطوير. وهو ليس رأياً هكذاواً، بل هو استنباط مقيد بضوابط صارمة.

آلية الجمع بينهما: التفسير الذي يبدأ بالنقل الصحيح ويستثمر العقل في الاستنباط المقيد

هذه الآلية تتم عبر خطوات متسلسلة:

١. البدء بالنقل الصحيح والاستقراء:

- جمع كل ما ورد من مأثور صحيح حول الآية موضوع البحث.
- تنقيته من الضعيف والموضوع والإسرائيليات.
- تحليل هذا المأثور وفهمه في إطاره الصحيح.

٢. تحليل المأثور وفهم مقاصده:

- لا يقف عند نقل المأثور فقط، بل يحاول فهم الحكمة والمقصد من ورائه.
- مثلاً: لا يكتفي بنقل أن "الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"، بل يحلل كيف تتحقق هذه الغاية.

٣. استثمار العقل في الاستنباط المقيد:

- هنا يأتي دور الرأي المجدد، ولكن بشكل مقيد بالمأثور وبضوابط الشرع واللغة.
- ضوابط الاستنباط المقيد:

الاستنباط في إطار المأثور: ألا يُخالف الرأي المأثور الصحيح.

الاستنباط في دائرة اللغة: ألا يخرج عن الدلالات المحتملة للّغة العربية.

الاستنباط وفق مقاصد الشريعة: أن يكون متجهاً نحو تحقيق مقاصد الشريعة (العدل، الرحمة، المصالح).

الاستنباط لمواجهة المستجدات: توجيه الجهد الاجتهادي لفهم النص في قضايا العصر التي لم يذكرها المأثور بشكل مباشر (كقضايا البيئة، والاقتصاد الرقمي، والأخلاق الطبية).

مثال تطبيقي:

عند تفسير آيات "الربا"، يبدأ المفسر:

- بالمأثور: بجمع كل ما ورد في القرآن والسنة وأقوال الصحابة في بيان حرمة الربا وأنواعه المعروفة في عصر النزول.

- ثم الرأي المقيد: يستنبط من هذه النصوص المقصد العام (درء الظلم والاستغلال في المعاملات المالية). ثم يطبق هذا المقصد على المستجدات (كبعض صيغ التمويل المعقدة، أو عقود المشتقات)، فيحكم على ما كان فيه ظلم واستغلال بأنه يدخل في حكم الربا، حتى لو اختلفت الصورة والشكل عن الصور التقليدية.

بهذه الآلية، يصبح التفسير عملية حيوية متوازنة: أصيل لأنه مرتبط بوحي النص وهدي السلف، ومتجدد لأنه يستثمر طاقة العقل في فهم هذا النص واستنباط حلوله لمشكلات العصر، ضمن إطار ضابط يمنع الانحراف والغلو.

الفصل الرابع: التفسير الموضوعي كمنهج تجديدي

تمهيد:

شَكّل ظهور "التفسير الموضوعي" نقلة نوعية في الدراسات القرآنية المعاصرة، وأصبح أحد أبرز مظاهر التجديد المنهجي في التفسير. فهو لم يعد مجرد أسلوب أساليب التفسير، بل تحول إلى منهج مستقل يقدم رؤية مغايرة لفهم النص القرآني، تخرج به من حيز التفسير الآلي للآيات إلى رحابة التفسير الكلي للمعاني والمقاصد.

المبحث الأول: مفهوم التفسير الموضوعي وتمييزه عن غيره

- التعريف: هو منهج تفسيري يدرس موضوعاً معيناً تناوله القرآن الكريم، وذلك بـ جمع كل الآيات المتعلقة بهذا الموضوع من مختلف سور القرآن، ودراستها دراسة متكاملة – بغض النظر عن ترتيب النزول أو ترتيب المصحف – لاستخلاص الرؤية القرآنية الشاملة والمتكاملة حول تلك القضية.

- الفرق بينه وبين التفسير الترتيبي (التقليدي):

  - التفسير الترتيبي: يبدأ من أول سورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس، مفسراً الآيات وفق تسلسلها في المصحف. (المنطلق: ترتيب المصحف).

  - التفسير الموضوعي: يبدأ من قضية أو فكرة، ثم يجمع شتاتها من كل أنحاء القرآن. (المنطلق: الفكرة أو القضية).

- الفرق بينه وبين التفسير التحليلي والإجمالي:

التفسير الموضوعي أعمق من مجرد شرح الآيات، فهو يقوم بعملية تركيب بعد التحليل، ليركب من مجموع الآيات رؤية واحدة متماسكة.

المبحث الثاني: التفسير الموضوعي كمنهج تجديدي (أهدافه وخصائصه)

يستحق التفسير الموضوعي لقب "المنهج التجديدي" للأسباب التالية:

١. كسر حاجز التجزئة في الفهم: يعالج مشكلة تفسير الآية بمعزل عن سياقها الكلي في القرآن، مما قد يؤدي إلى فهم ناقص أو مشوه. فهو يربط الآيات بعضها ببعض لرسم الصورة الكاملة.

٢. استخراج الرؤية القرآنية المتكاملة: لا يقدم رأي المفسر فقط، بل يستخرج النظام الفكري القرآني حول قضية ما (كالعدل، أو المرأة، أو الدعوة، أو الكون)، مقدماً إياه كنظرية قرآنية مكتملة.

٣. ملاءمة قضايا العصر: هو المنهج الأمثل لمعالجة الإشكالات الفكرية المعاصرة، فهو لا يبحث عن إجابة في آية واحدة، بل يجمع كل ما في البيت القرآني من أدلة لتقديم إجابة شافية. (مثل: الرؤية القرآنية للبيئة، للاقتصاد، للحوار).

٤. إثبات الإعجاز التشريعي والمنهجي للقرآن: يكشف عن الاتساق العجيب والنسيج المتين بين آيات القرآن، رغم تنوع مواضيعها وتفرقها في السور، مما يثبت أن مصدرها إلهي واحد.

٥. التغلب على إشكالية "النصوص المظللة": بعض الآيات إذا أخذت وحدها قد توحي بمعنى، ولكن عند جمعها مع الآيات الأخرى في نفس الموضوع، يتكامل المعنى ويستقيم. (مثل: جمع آيات الشدة مع آيات الرحمة في التعامل مع غير المسلمين).

المبحث الثالث: خطوات التفسير الموضوعي

١. تحديد الموضوع: (كالتوبة، الجهاد، السلام، العلم).

٢. جمع الآيات المتعلقة: استقصاء كل الآثار الواردة في الموضوع باستخدام المعاجم المفهرسة والبرامج الحاسوبية.

٣. ترتيب الآيات ودراستها: ليس بالضرورة ترتيب المصحف، بل ترتيبها منطقياً وفق خطة البحث (من العام إلى الخاص، من الأصول إلى الفروع،.).

٤. استخلاص الرؤية المتكاملة: وهي المرحلة الجوهرية، حيث يتم صياغة المبادئ الكلية والخطوط العريضة التي ينظمها القرآن حول الموضوع.

٥. التطبيق والعرض: عرض هذه الرؤية بشكل منهجي واضح، يبرز عطاءها في معالجة قضايا الواقع.

المبحث الرابع: نماذج تطبيقية للتفسير الموضوعي

- ☐ موضوع "الرسالات السماوية ووحدتها" في القرآن.
- ☐ موضوع "سنن الله في الكون والمجتمع".
- ☐ موضوع "التكافل الاجتماعي في القرآن".
- ☐ موضوع "الكون والعلم في القرآن".

خاتمة الفصل:

يمثل التفسير الموضوعي تجسيداً عملياً رفيعاً لمبدأ التجديد المنضبط. فهو تجديد لأنه فتح آفاقاً جديدة لفهم القرآن، وابتكر أداة منهجية قوية. وهو منضبط لأنه لا يخرج عن النص ذاته، بل يعود إليه بشكل أشمَل وأعمق. وهو بهذا قد نجح في تحويل القرآن من "نصوص متفرقة" في أذهان الكثيرين إلى "نظام فكري متكامل" يقدم الحلول ويقود الحضارة.

المبحث الخامس: ضوابط المنهج الموضوعي

لضمان سلامة التفسير الموضوعي من الانحراف، وتحويله من مجرد قراءة "انتقائية" للنص إلى منهج "علمي" رصين، لا بد من التقيد بجملة من الضوابط الأساسية التي تمثل حائط الصد أي تفسير بالهوى أو تحريف للمعاني.

الضابط الأول: الاستقصاء الشامل وعدم الانتقال

- المقصود: وجوب جمع كل الآيات المتعلقة بالموضوع المدروس، وعدم الاكتفاء ببعضها أو انتقاء ما يوافق رأي الباحث المسبق.
- المخالفة: يؤدي الانتقال إلى:
  - تقديم صورة ناقصة ومشوهة عن الرؤية القرآنية.
  - تحميل القرآن ما لا يحتمل لخدمة أيديولوجية معينة.
- التطبيق: استخدام المعاجم المفهرسة للآيات والبرامج الحاسوبية الشاملة لضمان عدم إغفال أي آية ذات صلة.

الضابط الثاني: فهم الآيات في سياقاتها الأصلية

- المقصود: قبل الشروع في صياغة الرؤية المتكاملة، يجب تفسير كل آية على حدة سياقها الخاص (سياق السورة، سبب النزول، السياق اللغوي).
- المخالفة: نزع الآية من سياقها يؤدي إلى فهم خاطئ لها، وبالتالي بناء الرؤية المتكاملة على أساس معوج.

- التطبيق: لا يجوز تفسير آية في سياق الموضوع الجديد قبل أن تفهم أولاً في سياقها المباشر.

الضابط الثالث: الجمع بين النصوص ورفع التوهم والتعارض

- المقصود: إذا بدا تعارض بين بعض الآيات المجتمعة حول الموضوع، يجب العمل على الجمع بينها إن أمكن، أو الترجيح وفق قواعد أصول التفسير والترجيح.

- المخالفة: ترك هذا التعارض الظاهري دون حل يقوض فكرة "الرؤية المتكاملة" ويظهر القرآن وكأنه متناقض.

- التطبيق: تطبيق قواعد النسخ، والتخصيص، والتقييد، وفهم مراتب النصوص (القطعي والظني).

الضابط الرابع: الربط بين المنهج الموضوعي والمقاصدي

- المقصود: أن يكون الاستنباط من مجموعة الآيات موجهاً بـ مقاصد الشريعة الكلية (حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، المال). فالفهم يجب أن يتجه نحو تحقيق هذه المقاصد.

- المخالفة: قد يؤدي جمع الآيات إلى استنباط أحكام أو مفاهيم تتعارض مع مقاصد الشريعة العليا إذا غاب هذا الضابط.

- التطبيق: اختبار أي رؤية مستخلصة من خلال سؤال: هل هذه الرؤية تحقق مقاصد الشريعة من عدل ورحمة ومصلحة؟

الضابط الخامس: الموضوعية والبعد عن التحيز المذهبي أو الفكري

- المقصود: أن يتحرر الباحث من أي انتماء مذهبي أو فكري يجعله يحاول "إثبات" رأيه من القرآن، بدلاً من "استنباط" الرأي من القرآن.

- المخالفة: تحويل التفسير الموضوعي إلى أداة لتبرير المذاهب والأفكار سلفاً.

- التطبيق: تقديم الدليل من مجمل النصوص حتى لو تعارض مع المذهب الشخصي، والاعتراف بالدلالة إذا كانت واضحة.

الضابط السادس: التوثيق العلمي والاستفادة من التراث

- المقصود: الاستناد إلى فهم السلف الصالح للآيات ضمن الاستقصاء، وعدم إغفال جهودهم تحت شعار "التجديد".

- المخالفة: القطيعة مع التراث تؤدي إلى أخطاء في الفهم كان قد تجاوزها الأقدمون.

- التطبيق: الرجوع إلى التفاسير المعتبرة لفهم دلالة الآيات المفردة، والبناء على ما توصلوا إليه.

الضابط السابع: التكامل مع المناهج التفسيرية الأخرى

- المقصود: عدم الاكتفاء بالمنهج الموضوعي وحده، بل الاستعانة بالمناهج الأخرى (كالتحليلي، والإجمالي) حيثما دعت الحاجة.

- المخالفة: قد يغفل التفسير الموضوعي عن بعض الدلالات العميقة للآية التي يكشفها التفسير التحليلي.

- التطبيق: استخدام التفسير التحليلي لفهم الآيات المفردة بعمق قبل الشروع في التركيب الموضوعي.

هذه الضوابط مجتمعة هي التي تحول التفسير الموضوعي من منهج وصفي يجمع الآيات، إلى منهج تحليلي تركيبى يستخرج النظام القرآني المحكم. وهي الضمانة ليكون التجديد في إطار الأصالة، والاجتهاد في دائرة الانضباط، مما يثبت أن القرآن يحوي في داخله المنهجية لفهمه.

الفصل الخامس: التفسير المقاصدي: الاجتهاد في ضوء الغايات

تمهيد:

شَكّل الاهتمام بمقاصد الشريعة نقلة نوعية في الفكر الإسلامي، وكان للتفسير نصيب كبير من هذه النقلة، حيث برز "التفسير المقاصدي" كمنهج تجديدي يربط فهم النص القرآني بالحكمة والغاية من تشريعه، معتبراً أن النصوص ليست غاية في ذاتها، بل وسائل لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد.

المبحث الأول: مفهوم التفسير المقاصدي وأصوله

- التعريف: هو منهج تفسيري يهدف إلى فهم النص القرآني واستنباط أحكامه في ضوء مقاصد الشريعة العامة والخاصة، مع النظر إلى الحكمة والعلل الكامنة وراء التشريع.

- الأصول المؤسسة:

١. ربانية المقاصد: بيان أن مقاصد الشريعة تستمد من نصوص الوحي وفهم مقاصد الله تعالى من تشريعه.

٢. كليّة المقاصد: اعتبار المقاصد العامة (الضروريات الخمس) إطاراً جامعاً لفهم النصوص الجزئية.

٣. واقعية التطبيق: ربط فهم النص بتحقيق المصالح ودرء المفاسد في الواقع المعيش.

المبحث الثاني: مجالات تطبيق التفسير المقاصدي

١. فهم العِلل والتفسير بها: البحث عن الحكمة من الأحكام وتوظيفها في فهم النص (مثل: فهم حكمة تحريم الربا في تفسير آياته).

٢. توجيه المتشابه: استخدام المقاصد كمرجعية لفهم الآيات المتشابهة وتوجيهها بما يحقق مصالح العباد.

٣. ربط الجزئي بالكلي: تفسير الآيات الجزئية في ضوء المقاصد الكلية للشريعة.

٤. استنباط الأحكام للمستجدات: الاجتهاد في النوازل المعاصرة بالبناء على مقاصد النصوص.

المبحث الثالث: ضوابط التفسير المقاصدي

١. الاستناد إلى النص: أن يكون الاستنباط المقاصدي مستنداً إلى الدليل لا مجرد الرأي المجرد.

٢. مراعاة السياق: فهم المقاصد في إطار السياق النصي والواقعي.

٣. الموازنة بين المقاصد: مراعاة الترتيب المقاصدي (الضروريات فالحاجيات فالتحسينيات).

٤. الربط بين وسائل الشرع ومقاصده: عدم إهدار الوسائل الشرعية بحجة المقاصد.

يُمثل التفسير المقاصدي تجسيداً للفهم العميق للنص القرآني، حيث يجمع بين الأصالة في الاستناد إلى النص والمعاصرة في فهم حكمته وتطبيقه. وهو بهذا يقدم رؤية متوازنة تجمع بين ثبات النص ومرونة التطبيق، محققاً مقاصد الشريعة في حفظ الدين ونظام الحياة.

الفصل الرابع: نماذج تطبيقية للتجديد المشروع

تمهيد:

يظل التنظير للمنهج التجديدي ناقصاً دون الوقوف على نماذج حية طبقت هذا المنهج في واقع التفسير، تاركة بصمات واضحة في مسيرة العلوم القرآنية. وهذا الفصل يعرض لنماذج رائدة، قديمة ومعاصرة، تمثل تجديداً مشروعاً في مجال التفسير وعلوم القرآن.

المبحث الأول: تجديد المفسرين – الطاهر بن عاشور (التحرير والتنوير)

يعد تفسير "التحرير والتنوير" للشيخ الطاهر بن عاشور (ت. ١٣٩٣هـ) من أبرز النماذج التطبيقية للتجديد المنهجي في العصر الحديث، حيث جمع بين الأصالة والابتكار.

- منهجه التجديدي في الإعجاز البلاغي:

- التركيز على النظم: لم يقتصر على شرح المفردات، بل أولى عناية فائقة بتحليل نظم الجمل القرآنية وربطها بسياقها، مُبرِزاً كيف يخدم تركيب الجملة المعنى المقصود.
- بيان الأساليب البلاغية: حلل الأساليب المختلفة في القرآن (الخبر، الإنشاء، القصر، الفصل والوصل) تحليلاً بلاغياً عميقاً، وكشف عن دلالاتها التعبيرية والنفسية.
- ربط البلاغة بالمقاصد: جعل البلاغة وسيلة لفهم مقاصد السورة والآية، لا غاية في ذاتها.

- منهجه التجديدي في المقاصد:

  - مقاصد السور: كان رائداً في التأكيد على أن لكل سورة مقصداً رئيسياً عاماً تندرج تحته المقاصد الجزئية للآيات. وقد أفرد مقدمة لكل سورة يبين فيها مقصدها العام.

  - التفسير الاجتماعي: أولى عناية كبيرة لاستنباط الدروس الاجتماعية والأخلاقية والحضارية من الآيات، معتبراً أن القرآن دستور حياة.

  - مراعاة سياق التشريع: عند تفسيره للآيات التشريعية، كان يبرز الحِكَم والمقاصد الاجتماعية والنفسية من وراء الحكم، مما يجعل التشريع حياً ومقنعاً للعقل المعاصر.

المبحث الثاني: تجديد علماء علوم القرآن – نموذج الزحيلي والزرقاني

تمثل جهود علماء مثل الدكتور وهبة الزحيلي (ت. ١٤٣٦هـ) والدكتور محمد عبد العظيم الزرقاني (ت. ١٣٦٧هـ) تجديداً في مجال "عرض" و"ترتيب" علوم القرآن.

- د. وهبة الزحيلي (التفسير المنير):

  - التجديد في العرض والترتيب: قدّم تفسيراً جامعاً يجمع بين المأثور والمعقول، بعرض منهجي واضح، يجذب طالب العلم المعاصر.

  - الربط بالواقع: ختم تفسير كل سورة بذكر "الهدايات واللطائف" المستفادة منها، مما يربط النص مباشرة بحياة القارئ وقضايا أمته.

  - الموازنة بين المذاهب: عرض لأقوال المفسرين المختلفة في المسائل الفقهية بعرضٍ مقارنٍ محايد، مما يوسع أفق القارئ.

- د. محمد عبد العظيم الزرقاني (مناهل العرفان في علوم القرآن):

- التجديد في التأليف: أعاد صياغة علم "علوم القرآن" في قالب منهجي معاصر، يجمع شتات الموضوعات ويقدمها بشكل متسلسل ومنطقي.

- التركيز على القضايا المعاصرة: تناول قضايا ملحة مثل "ترجمة معاني القرآن" و"الرد على شبهات المستشرقين" بشكل مفصل، مما جعل الكتاب مرجعاً عصرياً شاملاً.

- اللغة الواضحة: كتب بلغة عربية سليمة ولكنها معاصرة ومباشرة، خالية من التعقيد والحشو.

المبحث الثالث: مشاريع التفسير المعاصر الهادفة

ظهرت في العصر الحديث مشاريع تفسيرية جماعية وفردية تهدف إلى تقديم القرآن بلغة العصر، وربطه بقضاياه، مع الالتزام بالضوابط الشرعية.

- تفسير "في ظلال القرآن" لسيد قطب (ت. ١٣٨٥هـ):

- التجديد في الرؤية والمنهج: قدّم التفسير بمنظور "حركي" يجعل القرآن منهج حياة، ويدعو إلى التغيير الشامل.

- التركيز على القضايا الاجتماعية والفكرية: عالج قضايا الجاهلية المعاصرة، والعقيدة والتوحيد، والصراع بين الحق والباطل.

- اللغة الأدبية المؤثرة: استخدم لغة أدبية رفيعة، مليئة بالصور والتشبيهات، مما جعل التفسير مؤثراً في وجدان الشباب.

- تفسير "الهدى" للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت):

- التجديد في المشروعية الجماعية: مشروع ضخم شارك فيه عشرات العلماء المتخصصين من مختلف المذاهب، مما يضمن التوازن والموضوعية.

- التركيز على الوحدة الموضوعية: رتب التفسير وفق الوحدات الموضوعية داخل السورة، وليس فقط وفق ترتيب الآيات.

- معالجة القضايا التربوية والحضارية: أولى اهتماماً كبيراً لاستخلاص الدروس التربوية والأسس الحضارية من الآيات.

- تفسير "أيسر التفاسير" لأبي بكر الجزائري:

- التجديد في التبسيط والتوجيه: قدّم تفسيراً ميسراً جداً، بلغة واضحة، يركز على المعنى الإجمالي والهدايات العملية.

- التركيز على الجانب التربوي والأخلاقي: ختم كل آية أو مجموعة آيات بالدروس المستفادة، مما يجعله مقرراً تربوياً ممتازاً.

تُظهر هذه النماذج أن التجديد المشروع ليس شعاراً مجرداً، بل هو جهود عملية متواصلة، تتنوع بين التجديد المنهجي العميق (كابن عاشور)، والتجديد في العرض والتبويب (كالزحيلي والزرقاني)، والتجديد في الرؤية والتوجيه (كسيد قطب والمشاريع الجماعية). وكلها تشترك في سمة أساسية: الانطلاق من الأصالة والالتزام بالضوابط، مع الشجاعة في الاجتهاد ومواكبة روح العصر.

الباب الثالث: الانحراف والخطورة (التجديد المذموم ونماذجه)

الفصل الخامس: ضوابط الانحراف في التفسير المعاصر

تمهيد:

في مقابل التجديد المشروع، تنشأ باستمرار محاولات تفسيرية تخرج عن الضوابط الشرعية، متخذة من شعار "التجديد" غطاءً لهدم ثوابت الدين وتحريف النصوص. وهذا الفصل يهدف إلى وضع معايير واضحة للتمييز بين التجديد المقبول والانحراف المذموم.

المبحث الأول: المظاهر المنهجية للانحراف

١. تعطيل النص بالعقل:

- المظهر: تقديم العقل البشري أو الفلسفات الوضعية كحَكَم على النص القرآني، وتأويل النصوص القطعية لتتوافق معها، أو رفضها إذا تعارضت معها.
- الخطر: تفريغ النص من محتواه، وتحويل الدين إلى تابع للفكر البشري المتغير.

٢. القطيعة مع التراث التفسيري:

- المظهر: رفض كل ما أتى به السلف من تفسير تحت دعوى "التحرر من سجن التراث"، والادعاء بفهم القرآن مباشرة دون حاجة إلى علوم الآلة.
- الخطر: الفهم السطحي للنص، والوقوع في أخطاء كان الأقدمون قد تجاوزوها، وفقدان الصلة العضوية بالأمة.

٣. الانتقائية في التعامل مع النصوص:

- المظهر: انتقاء النصوص التي توافق الهوى أو الأيديولوجيا المسبقة، وتجاهل النصوص الأخرى التي تعارضها أو تقيدها.

- الخطر: تقديم صورة مشوهة ومجزأة عن الإسلام، وتحويل القرآن إلى أداة لتبرير الأهواء.

٤. اللعب بدلالات الألفاظ:

- المظهر: تحميل الألفاظ القرآنية معانيَ حديثةً ومصطلحاتٍ مستوردة لا تحتملها اللغة العربية، أو إنكار دلالاتها المعروفة.

- الخطر: فصل القرآن عن لغته الأصلية، وهو وسيلة مضمونة للتحريف.

المبحث الثاني: المظاهر الفكرية للانحراف

١. نسبية الحقيقة الدينية:

- المظهر: القول بأن فهم القرآن خاضع للزمان والمكان فقط، وليس هناك حقيقة مطلقة، وأن كل تفسير صحيح بالنسبة لصاحبه.

- الخطر: هدم اليقينيات الدينية، وتحويل الدين إلى آراء شخصية.

٢. تحريف المقاصد الشرعية:

- المظهر: توظيف "المقاصد" لتغيير الأحكام الشرعية القطعية، والادعاء بأن المقصد يلغي النص.

- الخطر: إسقاط الفرائض والتكاليف تحت شعار "مراعاة المقاصد" و"رفع الحرج".

٣. النزعة العقلانية المتطرفة:

- المظهر: تفسير الغيبيات (كالمعاد والملائكة والجن) تفسيراً رمزياً أو عقلياً بحتاً، ينفي حقيقتها الذاتية.
- الخطر: هدم أركان الإيمان، وتحويل الإسلام إلى فلسفة مادية.

المبحث الثالث: ضوابط الكشف عن الانحراف

١. ضابط الموافقة للغة العربية: أي تفسير يخالف القواعد المقررة للغة العربية وأساليبها فهو انحراف.

٢. ضابط الانسجام مع النصوص القطعية: أي تفسير يتعارض مع نص قرآني أو حديث متواتر قطعي الثبوت والدلالة فهو باطل.

٣. ضابط التوافق مع المقاصد الكلية: أي تفسير يؤدي إلى نتيجة تتعارض مع مقاصد الشريعة الضرورية (حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، المال) فهو انحراف.

٤. ضابط الاتساق مع الإجماع القطعي: أي تفسير يخالف إجماعاً قطعياً للأمة فهو مردود.

٥. ضابط الاستقامة المنهجية: أي تفسير يعتمد على الهوى والانتقائية وعدم الاستقصاء، ويقدم آراء بلا أدلة فهو انحراف.

معرفة ضوابط الانحراف ليست لتجميد الاجتهاد، بل لحماية حياضه من التلوث. فهي تشبه "الجهاز المناعي" للأمة، الذي يحمي فهمها للوحي من "الفيروسات" الفكرية الدخيلة. والتمييز بين التجديد والانحراف ليس ترفاً فكرياً، بل هو مسألة وجود تتعلق بحفظ هوية الأمة وضمان استمرارها الحضاري.

المبحث الرابع: نماذج الانحراف التطبيقية: التأويل الباطني الجديد

يمثل "التأويل الباطني الجديد" أحد أبرز وأخطر نماذج الانحراف في التفسير المعاصر، حيث يتخفى بثوب "القراءة العميقة" و"تحرير النص من قيد الحرفية"، بينما هو في جوهره عملية تفريغ للنص من مضمونه الشرعي ، وتحويله إلى رموز مفتوحة للتأويل.

أولاً: مفهوم التأويل الباطني الجديد وتمييزه:

- التعريف: هو منهج تفسيري يعطل الدلالات الظاهرة واليقينية للنص القرآني (المنطوق والمعنى المباشر)، ويدعي وجود معانٍ باطنة ورمزية هي "الحقيقة" الوحيدة للنص، لا يمكن الوصول إليها إلا لفئة خاصة أو بمنهجية فلسفية محددة.
- الفرق بينه وبين البحث عن الإشارات والمعاني الباطنة المشروعة:
  - المشروع: يبحث عن معانٍ إضافية لا تتعارض مع الظاهر، وتكون مستندة إلى قرائن شرعية أو لغوية، وتثري الفهم دون إلغاء للأصل. (كاستنباط حكمة أو عظة من القصة القرآنية).
  - الباطني المذموم: يلغي الظاهر تماماً ويستبدله بالباطن، مما يفصل النص عن سياقه التاريخي واللغوي وأصوله التشريعية.

ثانياً: أبرز ملامح ومنطلقات هذا المنهج:

١. إلغاء الدلالة الظاهرة (تفكيك النص):

- يعتبر أن المعنى الظاهري للنص (الذي فهمه الصحابة والأمة عبر العصور) معنى سطحي وغير حقيقي.

- يدعي أن اللغة عاجزة عن نقل الحقيقة المطلقة، وبالتالي لا بد من تجاوزها إلى ما وراءها.

٢. التحول إلى الرمزية المطلقة:

- يحول كل عنصر في النص القرآني (الأشخاص، الأحداث، الأحكام، الجنة، النار) إلى رموز لمفاهيم فلسفية أو نفسية أو صوفية.

- مثلاً: قد يصير "فرعون" رمزاً للأنا البشرية المتعالية، و"موسى" رمزاً للعقل الواعي، و"الخروج من مصر" رمزاً للتحرر النفسي!

٣. القطيعة مع السياق التاريخي والشرعي:

- يرفض ربط النص بأسباب النزول أو ظروفه التاريخية، باعتبار أن "الحقيقة" المطلقة خالدة ولا ترتبط بزمان أو مكان.

٤. ادعاء الاحتكار في فهم الحقيقة:

- يدعي أصحاب هذا المنهج أنهم يمتلكون "مفتاح" لفهم القرآن الحقيقي، الذي خفي على عامة الناس وعلماء الأمة.

ثالثاً: المخاطر والآثار المدمرة لهذا المنهج:

١. هدم الشريعة: يؤدي إلى إسقاط الأحكام العملية (الصلاة، الزكاة، الحلال، الحرام) لأنها تفقد دلالاتها الحقيقية وتتحول إلى طقوس رمزية أو تمارين نفسية.

٢. نسف العقيدة: بتحويل الغيبيات (الله، الملائكة، الجنة، النار) إلى رموز، يتم تفريغ الإيمان من محتواه وتحويله إلى فلسفة مجردة.

٣. فصل الأمة عن قرآنها: يجعل القرآن كتاباً غامضاً لا يفهمه إلا "الخواص"، مما يقوض علاقة العامة به ويحولهم إلى تابعين.

٤. فتح الباب أمام العبثية: عندما ينفصل النص عن ظاهره وضوابطه، يصبح كل تأويل مقبولاً، ولا يعود هناك معنى ثابت، فيتحول القرآن إلى لوحة فارغة يرسم عليها كل شخص ما يشاء.

رابعاً: نماذج معاصرة للتأويل الباطني الجديد:

- بعض القراءات الحداثية والتفكيكية للقرآن، التي تنظر إليه كـ "نص مفتوح" لا معنى محدداً له.
- بعض كتابات التيار العرفاني المتطرف الذي يلغي الظاهر لصالح "الإشارات" الباطنة.
- بعض تفسيرات الغنوصية (العرفان الفلسفي) التي تمزج الإسلام بفلسفات شرقية وغربية.

يعد التأويل الباطني الجديد امتداداً تاريخياً للباطنية القديمة، لكن بثياب عصرية وبلغة فلسفية معقدة. وهو أخطر على الدين من الإنكار الصريح، لأنه لا يهاجم النص من خارجه، بل يسلخه من داخله ويحافظ على قشوره بعد تفريغه من جوهره. والمواجهة الفكرية مع هذا المنهج تكون بإثبات حجية الظاهر، وبيان أن اللغة قادرة على نقل المعنى، وأن فهم السلف هو الأساس الذي لا يجوز تجاوزه.

المبحث الخامس: التفسير العصراني (الهوائي): ليّ أعناق النصوص لتتوافق مع المذاهب الفكرية الغربية (الليبرالية، النسوية، إلخ).

يمثل "التفسير العصراني" أو "التفسير الهوائي" نموذجاً بارزاً من نماذج الانحراف في التفسير المعاصر، حيث يتخلى المفسر عن دور المستنبط من النص ليتحول إلى دور المطوع للنص، في عملية استلابية تهدف إلى إخضاع الوحي لمنطق الفلسفات والمذاهب الغربية الوضعية.

أولاً: مفهوم التفسير العصراني وطبيعته:

- التعريف: هو ذلك التوجه التفسيري الذي يسعى إلى إعادة صياغة دلالات النصوص القرآنية وإلى ليّ أعناقها لتتوافق مع المنظومات الفكرية والقيمية الغربية الوافدة (كل الليبرالية، والنسوية، والعلمانية، والماركسية وغيرها)، تحت شعار "توافق الإسلام مع العصر" أو "القراءة الحديثة".

- الطبيعة: هو تبعية فكرية مقنعة، حيث يصبح النص القرآني تابعاً – وليس حاكماً – للفكر الغربي. وهو انزياح عن الوسطية إلى الذوبان في الآخر.

ثانياً: آليات عمل التفسير العصراني:

١. التأويل الانتقائي الانحيازي:

- اختيار النصوص التي يمكن تأويلها لتخدم الفكرة المسبقة، وتجاهل النصوص الأخرى التي تقطع بها.

- مثال: التركيز على آيات المساواة العامة بين البشر (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وتجاهل الآيات التي تبين اختلاف الأدوار والتكاليف (الرجال قوامون على النساء).

٢. تحريف دلالات الألفاظ:

- إفراغ المصطلحات القرآنية من مضامينها الشرعية والتاريخية، وحشوها بمضامين غربية.

- مثال: تفسير "العدل" في القرآن بالمساواة المطلقة الغربية، أو تفسير "الحرية" بأنها التحرر من كل القيود الدينية والأخلاقية.

٣. استدعاء السياق لإسقاط الحكم:

- الادعاء بأن أحكاماً قرآنية معينة كانت مرتبطة بظروف تاريخية خاصة ("سياق العصر الجاهلي")، وبالتالي فهي غير ملزمة في العصر الحديث.

- مثال: القول بأن آيات الميراث أو القوامة أو تعدد الزوجات كانت مناسبة لمجتمع القرن السابع الميلادي فقط.

٤. تفضيل "روح النص" المزعومة على منطوقه:

- الادعاء بوجود "روح عامة" للقرآن (كالعدل، والحرية) ثم استخدام هذه "الروح" لتجاوز النصوص الصريحة والقطعيات التي تتعارض مع التطبيق الغربي لها.

ثالثاً: نماذج تطبيقية للتفسير العصراني:

١. التفسير النسوي المتطرف:

- الهدف: إثبات أن الإسلام يساوي بين الجنسين بشكل مطلق في كل شيء.

- الممارسة: تأويل آية القوامة لتُفهم كـ "رعاية متبادلة"، والقول بأن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل كان مرتبطاً بظروف اجتماعية ذهبت، وتأويل آيات الميراث لتتوافق مع مبدأ المساواة الحسابية.

٢. التفسير الليبرالي المتطرف:

- الهدف: إثبات أن الإسلام يكرس الحريات الفردية المطلقة.

- الممارسة: تأويل نصوص حد الردة على أنها كانت لمقاومة "الخيانة السياسية" في دولة المدينة وليس لمجرد تغيير الدين، والقول بحرية الاعتقاد المطلقة (بما في ذلك حق المسلم في ترك دينه علناً)، وتأويل نصوص تحريم الزنا واللواط على أنها تتعلق بالإكراه فقط لا بالعلاقات الرضائية بين البالغين!

٣. التفسير العلماني:

- الهدف: فصل الدين عن الدولة والحياة العامة.

- الممارسة: تأويل الآيات التي تتعلق بالشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأحكام الجهاد على أنها ذات طابع أخلاقي فردي فقط، وليس لها أي امتداد إلى نظام الحكم أو السياسة أو المجتمع.

رابعاً: المخاطر والآثار:

- فقدان الهوية: يؤدي إلى تشويه الإسلام وتحويله إلى نسخة باهتة من الفلسفات الغربية، مما يفقد الأمة مرجعيتها وهويتها المتميزة.

- تفريغ الإسلام من محتواه: يصبح الإسلام مجرد شعارات فضفاضة (العدل، الحرية) يمكن أن تملأها أي أيديولوجيا، بعد تجريده من أحكامه وتشريعاته المحددة.

- الازدواجية والتناقض: يخلق تفسيراً متناقضاً مع نفسه، لأنه يحاول الجمع بين نصوص ثابتة ومذاهب متغيرة، فيلجأ إلى التأويلات المتكلفة.

- التمييع والانهزامية الفكرية: يعكس حالة انهزام حضاري واستلاب ثقافي، حيث يصبح الفكر الغربي هو "المحكَّم" و"المقياس" الذي يُحكم به على صحة الإسلام من بطلانه.

التفسير العصراني الهوائي هو مرض يصيب العقل المسلم عندما يفقد ثقته في مرجعيته وفي قدرته على إنتاج خطاب مستقل. وهو ليس "تجديداً" بل هو "استبدال". والمواجهة الفعلية معه لا تكون بالانغلاق، بل بتجديد حقيقي ينطلق من الثقة بالنص القرآني، وبالقدرة على إنتاج خطاب إسلامي أصيل ومعاصر، يخاطب العصر بلغته دون أن يذوب فيه، ويقدم حلوله من داخله دون أن يستوردها جاهزة من خارجه.

التفسير العلمي المفرط: تحميل النص القرآني نظريات علمية غير ثابتة، والتفسير على أساسها (القول في القرآن بما ليس قطعياً).

المبحث السادس: التفسير العلمي المفرط: استغلال النص في غير ميدانه

يُعد "التفسير العلمي المفرط" من أكثر صور الانحراف التفسيري انتشاراً في العصر الحديث، حيث يسعى إلى توظيف النص القرآني لتأييد النظريات العلمية، في عملية تخلط بين مجالين مختلفين: مجال الوحي الغيبي الثابت، ومجال العلم البشري المتغير.

أولاً: مفهوم التفسير العلمي المفرط ودرجاته:

- التعريف: هو ذلك التوجه التفسيري الذي يُحمِّل النص القرآني نظريات علمية حديثة، ويحاول إثبات أنها المقصودة حصراً في النص، حتى لو كانت هذه النظريات غير ثابتة أو قابلة للتغيير.

- درجاته:

١. التفسير بالإعجاز العلمي المنضبط: وهو الربط بين الآيات الكونية في القرآن وبين الحقائق العلمية الثابتة التي لا تتغير، مع التأكيد على أن القرآن كتاب هداية وليس كتاب فيزياء أو جيولوجيا.

٢. التفسير العلمي المفرط (الانحراف): وهو الربط بين الآيات وبين النظريات العلمية غير المحسومة أو القابلة للتغيير، والادعاء بأن القرآن قد أشار إليها بشكل حصري.

ثانياً: أبرز ملامح وآليات هذا المنهج:

١. تحميل النص ما لا يحتمل:

o إجبار النص القرآني على الانسجام مع النظرية العلمية، حتى لو كان ذلك يتطلب تأويلاً بعيداً عن السياق واللغة.

o مثال: تفسير "الدخان" في قوله تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت: ١١] على أنه "الغبار الكوني" أو "الطاقة المظلمة" في نظرية الانفجار العظيم، مع أن الدخان في اللغة له معنى واضح.

٢. الاستناد إلى نظريات غير مثبتة:

o بناء التفسير على نظريات علمية لا تزال في طور الفرضية أو قيد البحث، مما يعرض القرآن للخطأ إذا ما تبين بطلانها لاحقاً.

o مثال: الربط بين مراحل خلق الجنين في القرآن وبين بعض النظريات التي قد تتغير مع تقدم علم الأجنة.

٣. الادعاء بالحصرية والتفصيل:

o الادعاء بأن النص القرآني قد أشار إلى هذه النظرية العلمية بتفاصيلها الدقيقة، وأن هذا هو المعنى الوحيد المقصود.

٤. إهمال السياق والغاية:

o تجاهل أن سياق الآيات هو سياق عقدي وتهذيبي، وليس سياقاً علمياً بحتاً. فالغاية هي الدلالة على عظمة الخالق، وليس شرح الظواهر الطبيعية.

ثالثاً: المخاطر والآثار السلبية:

١. تعريض القرآن للسخرية:

o عندما تثبت خطأ نظرية علمية بُني عليها تفسير قرآني، يصبح القرآن عرضة للانتقاد من قبل غير المسلمين، ويتحول دليلاً على صدقه إلى عبء عليه.

٢. تحويل القرآن إلى كتاب علوم:

o إفراغ القرآن من رسالته الأساسية (الهداية والتزكية والتشريع) وتحويله إلى مجرد كتاب يتنبأ بالاكتشافات العلمية.

٣. الانزياح عن المقصد الإيماني:

o تحويل التفاعل مع القرآن من تأمل وعبادة إلى عملية بحث عن إثباتات علمية، مما يفقد القارئ الجانب الروحي والأخلاقي.

٤. خلق صراع وهمي بين الدين والعلم:

o عندما يُربط القرآن بنظريات علمية، فإن أي نقد لهذه النظريات سينظر إليه على أنه هجوم على القرآن نفسه.

رابعاً: الضوابط الشرعية للتعامل مع الآيات الكونية:

١. ضابط الثبات: الاقتصار على الربط بين الآيات وبين الحقائق العلمية القطعية التي لا خلاف عليها، وليس النظريات القابلة للتغيير.

٢. ضابط الاحتمال اللغوي: أن يكون التفسير العلمي محتملاً ضمن دلالات الألفاظ العربية وليس تأويلاً تعسفياً.

٣. ضابط عدم الحصرية: عدم الادعاء بأن هذا التفسير العلمي هو المعنى الوحيد للنص، بل هو واحد من احتمالاته التي تظهر مع تقدم العلم.

٤. ضابط المقصدية: تذكير النفس بأن الهدف الأساسي هو الاستدلال على قدرة الخالق وعظمته، وليس التفاصيل العلمية ذاتها.

التفسير العلمي المفرط هو انحراف نابع من رغبة صادقة في إثبات إعجاز القرآن، لكنه يسلك الطريق الخطأ. إن الإعجاز العلمي الحقيقي لا يكون بتحميل النص ما لا يحتمل، بل يكون بإبراز اتساق النص القرآني مع الحقائق الثابتة، مع التأكيد على أن القرآن يخاطب الفطرة ويهدي إلى الحق في كل المجالات، وليس فقط في المجال المادي. فالقرآن كتاب هداية، وأعظم إعجازه هو إعجازه التشريعي والأخلاقي والبياني الذي يخاطب الوجدان والعقل معاً عبر العصور.

الخلاصة والنتائج

تؤكد هذه الدراسة أن قضية التجديد في التفسير تمثل قطب الرحى في مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة، وهي قضية مصيرية لا تحتمل الانزياح ولا الانفلات. وقد أسفر البحث عن جملة من النتائج يمكن إيجازها على النحو التالي:

أولاً: أهمية التجديد الملتزم بالضوابط

١. ضرورة حيوية: يمثل التجديد المنضبط استجابة شرعية لحاجة الأمة إلى فهم معاصر للقرآن يواكب مستجدات العصر، ويقدم حلولاً من القرآن لتحدياته العلمية والفكرية والاجتماعية.

٢. استمرار للحياة: يحفظ للتفسير حيويته وفاعليته، مانعاً إياه من التحول إلى تراث تاريخي منفصل عن واقع الناس وهمومهم.

٣. تحقيق للوسطية: يقدم نموذجاً وسطياً يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويوازن بين ثوابت النص ومتغيرات العصر، وبين الاعتزاز بالتراث والانفتاح على المعرفة الإنسانية.

٤. تجسيد لخلود القرآن: يثبت عملياً صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، من خلال قدرته على استيعاب الاجتهادات المستنيرة التي تثري معانيه دون المساس بثوابته.

ثانياً: خطورة الانفلات المنهجي

١. مسخ الهوية: يؤدي الانفلات المنهجي إلى تشويه الصورة الحقيقية للإسلام، وتحويله إلى دين هجين، تابع للفلسفات والمذاهب الوافدة.

٢. تفكيك النص: ينتهي بالانفلات إلى تفكيك النص القرآني وإفراغه من مضمونه، عبر التأويلات الباطنية والرمزية المتطرفة، أو تحميله ما لا يحتمل من النظريات العلمية غير الثابتة.

٣. تمييع الثوابت: يهدد الثوابت الشرعية والعقدية تحت شعارات براقة مثل "التحديث" و"القراءة المعاصرة"، مما يفضي إلى نسف اليقينيات التي يقوم عليها الدين.

٤. إثارة الفتنة: يخلق انقساماً حاداً في الأمة بين تيار جامد متشدد وآخر منفلت متهاوِن، مما يصرف الطاقة عن البناء والعمران إلى الجدل والصراع.

التوصية المركزية:

إن الخيار الوحيد للأمة للخروج من هذا المأزق هو تبني منهج "الموازنة" الذي يجمع بين الأصالة والاجتهاد، وبين النقل والعقل، وبين الثبات على الأصول والمرونة في الفروع. وهو المنهج الذي يرفض "التقليد" الذي يُجمِّد العقل، ويرفض "التبديع" الذي يهدم الأصول.

ليس التجديد ترفاً فكرياً، بل هو فريضة شرعية وضرورة حضارية. لكنه لن يكون نعمة إلا إذا كان منضبطاً بضوابط الشرع، محكوماً بأصول اللغة، مستنداً إلى فهم السلف، موجهاً بـ مقاصد الشريعة. وعندها فقط يصبح القرآن – كما أراد الله له – {هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}، ينير الدرب للأمة، ويؤهلها لاستئناف دورها الحضاري، وتقديم نموذجها الإنساني الأصيل إلى العالم.

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد،

فها هو هذا الكتاب يضع بين يدي القارئ خلاصة جهد متواضع في تقويم قضية من أخطر قضايا الأمة الفكرية في عصرها الراهن: قضية التجديد في التفسير. لقد حاولنا من خلال هذه الصفحات أن نُمحص مفهوم التجديد، ونرسم حدوده، ونتعرف على دوافعه، ونقف على نماذجه المشروعة والمرفوضة.

لقد اتضح لنا أن التجديد ليس خياراً من خيارات الأمة، بل هو ضرورة وجودية لاستمرارها الحضاري، وشرطٌ أساسي لبقاء القرآن منيراً لطريقها، ومحكماً لحركتها في التاريخ. إنه الرد الحي على أولئك الذين يرون في القرآن نصاً تاريخياً تجاوزه الزمن، وهو الجواب العملي على تساؤلات الإنسان المعاصر وهواجسه.

غير أن هذه الضرورة لا تعني الانفلات، ولا تبرر العبث بثوابت الوحي. لقد أكدت صفحات هذا الكتاب أن التجديد الحقيقي هو الذي ينبع من صميم الأصالة، فهو كالشجرة الطيبة، كلما تعمقت جذورها في الأرض، امتدت فروعها في السماء. إنه تجديد يبدأ من فهم تراثنا لا من القطيعة معه، ويستلهم مناهج السلف لا أن ينسلخ عنها، ويحترم ثوابت النص ولا يتجاوزها.

وفي المقابل، حذرنا من أن الانحراف باسم التجديد أخطر على الدين من الجمود نفسه، لأن الجمود قد يوقف العقل، لكن الانحراف يزيغ به، والجمود قد يحجر على النص، لكن الانحراف يسلخه من معناه ويحوله إلى أداة في يد الأهواء.

لذلك، تبقى الموازنة هي الكلمة المفتاح، والمنهج الأمثل، الذي يجمع بين سلطة النص وحرية العقل، وبين قدسية الوحي وواقعية الحياة، وبين الانتماء للتراث والانفتاح على العصر.

وفي الختام، فإننا نؤمن بأن مستقبل التفسير – ومستقبل الأمة معه – رهين بهذه الموازنة الدقيقة بين شرعيَّة التجديد وضوابط الانضباط. فبقدر ما نتمسك بأصول ديننا وثوابت كتابنا، ونفتح عقولنا لاستنطاقه واستنباط حلوله لمشكلاتنا، بقدر ما نستحق أن نكون {خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، ونافعاً لعباده، وأن يهدينا جميعاً إلى صراطه المستقيم، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

فضيلة الشيخ : حذيفة بن حسين القحطاني

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين